كلمة

الأستاذ الدكتور شاكر الفحام

رئيس مجمع اللغة العربية

١

شاءت إرادةُ الله العليّ القدير أن يفارقنا الأخُ الصديقُ الأستاذ الدكتور محمد بديع الكسم الى جوار ربه الكريم، أعزّ ماكان بيننا، وأحبَّ ماكان الينا، فليرحمه الله الرحمة الواسعة، وليسكنه فسيح جنانه في عِلّيين، مع الذين أنعم اللهُ عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحُسن أولئك رفيقا.

لقد آدنا الرزءُ الفاجع، وبهظنا المصابُ الأليم، وإن لفراق الحميم حُرْقةً في القلب مُمِضّة، ولوعةً لاتُدفع. لقد افتقدنا فيه الأستاذَ العالم، والمربّيَ الكفيّ، والفيلسوفَ العبقريّ، والصديقَ الإنسان، والرجلَ الفاضل الذي تلاقت القلوبُ على حبّه واحترامه، لما جُبل عليه من السجايا الحميدة والشمائل الكريمة.

٢

وإن سيرة الفقيد، عليه الرحمة، حافلةٌ بالجَنى الطيّب، والعطاء المترع، يمتدُّ فيها نَفَسُ القول، وتتشقق شعبُه. والحديثُ ذو شجون. لكنَّ المقام يقتضي أن أجمل الحديث، وأطوي من أطرافه .

ولد الدكتور بديع الكسم بدمشق عام ١٩٢٤م، ونشأ في أسرة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عُرفت بالتقوى والورع، وانصرفت الى العلم والتفقّه في الدين. كان أبوه الشيخ محمد عطا الله الكسم (١٨٤٤– ١٩٣٨م) من كبار فقهاء الحنفية بدمشق، وأهَّله علمه الواسع وخُلُقه الرضيّ لتولي منصب المفتي العام واحداً وعشرين عاماً حتى توفاه الله. وقد وقف حياته على العلم والتعليم، وكثرت الحلقات التي كان يعقدها في المساجد يؤمّها طلاب العلم، يقرؤون عليه، ويفيدون من علمه الغزير، وينال المتفوق منهم إجازته للإقراء والتعليم.

وكان منزله منتدى العلماء والفقهاء والأدباء وكبار رجالات دمشق، تعقد فيه مجالس العلم، وتدور الأحاديث والمناظرات، ويمضي بهم القولُ حيناً إلى تناول مايلمّ بالوطن الحبيب من وقائع ومظالم يقترفها المستعمر الغاشم، وتأييد موقف الشعب المناضل يقدّم أغلى التضحيات لدفع الأذى وردّ العدوان .

في هذا الجو الذي تهيمن عليه المثلُ الأخلاقية، والتعلقُ بالعلم، وحبُ الوطن والمذاكرة في همومه وقضاياه نشأ الأستاذ الكسم، وترعرع، وتفتحت نفسُه لما رأى وسمع وكانت التربةَ الخصبَةَ لتلقي هذه البذور الصالحة التي نمت وزكت كأحسن مايكون النَّماءُ والزَّكاءُ. وكان لها آثارها البيّنة الواضحة في حياته ومسلكه.

يتراءى لك ذلك كلّه في الطريقة التي ارتضاها الدكتور الكسم نهجاً في حياته، ثم في تلك المقالات التي حبّرها، يوضح فيها آراءه وتطلعاته.

٣

أنهى الدكتور الكسم دراسته الثانوية في عام ١٩٤٢م. ونال الإجازة الجامعية من قسم الفلسفة بكلية الآداب– جامعة القاهرة (جامعة فؤاد الأول آنذاك) عام ١٩٤٧م.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان متفوقاً في دراساته وبحوثه الجامعية .

وعاد إلى سورية ليعيّن مدرساً في مدينة اللاذقية (١٩٤٨– ١٩٤٩م) ثم انتقل إلى دمشق. وأوفد بعد ذلك إلى جنيف (سويسرا) ليكمل شوط دراسته بنيل الدكتوراه في الفلسفة من جامعتها (سنة ١٩٥٨م) في رسالته «البرهان في الفلسفة» التي حازت أعلى درجات التقدير، ونوّه بها كبار فلاسفة العصر .

ويقتضينا هذا التفوق المدهش الذي أكبره أساتذةُ الفلسفة في الغرب أن نتوقف قليلاً لبيان صفة من الصفات الأصيلة التي فُطر عليها الدكتور بديع، كان لها الأثر الأول في تفوقه وتألقه، إلى جانب ذكائه المتقد، وموهبته الفريدة الفذّة. إنها محبة الكتب والتعلق بها، وصحبتها ليل نهار .

لقدّ ظلّ الدكتور الكسم حياته كلها خدين الكتب لايكاد يفارقها، وقد أُولع بالفلسفة خاصة وَلوعاً شديدا. فكان جلساؤه المحبَّبون إليه اولئك العباقرة الكبار: أفلاطون وارسطو وابن سينا وابن رشد وهيغل وكانت وبرغسون واشبنغلر وهيدغر وتوينبي وأمثالهم من الفلاسفة الأعلام، أكبَّ على كتبهم يقرؤها قراءة عارف بصير، ويستوعبها استيعاب ماهر خبير. وآتاه الله ذاكرة لاتَنْسى، وجَلَداً على البحث لايُجارى. وكان حاضر الذهن تسأله عن مسألة في الفلسفة فاذا هو يشرح لك أمرها الشرح الوافي، ليسردَ عليك من بعدُ المصادر والمراجع التي عالجتها، كأنه يقرأ في كتاب. ثم يحدثُك عن أحدث المجلات التي تناولتها، فيبهرك بسعة معارفه، وحضور ذهنه، وقوة ذاكرته. كذلك كان شأنُه وديدنُه، فهو على ذُكْر لما مضى، واطلاعٍ على مايجدُّ من كتب ومقالات .

ولئن نال مانال من معرفة واسعة بالفلسفة ومذاهبها وكتبها ورجالها فِعْلَ كبار الإخصائيين، إن ذلك لم يصرفه عن متابعة مايستجدُّ على ساحة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المعرفة، ولم يَحُلْ بينه وبين الاطلاع الواسع المتبصّر على مانُشر من مؤلفات في الآداب وعلوم اللسان والتاريخ والجغرافيا وأمثالها، والتمكّن منها. فكان بحقٍّ موسوعة معارف، قد أحاط بثقافة العصر، ولم يقصره تخصصه بالفلسفة عن المشاركة الجادة في العلوم الأخرى .

٤

ولما أكمل الدكتور الكسم شوط دراسته بنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة عاد إلى ساحة التدريس في جامعة دمشق تملؤه الحماسة والنشاط، وقضى حياته أستاذاً يدرّس ويحاضر. ولقد هيأت له هذه المهنة الكريمة أن يلتقي طلابه المحبَّبين إليه كل حين، ليبثَّ فيهم روحَ العلم، ويشجّعَهم على متابعة الدرس، ويدلَّهم على الطريق القاصد في البحث العلمي ليحقق جدواه. ولم يغادر الجامعة إلا سنةً واحدة الى القاهرة، وأربع سنوات قضاها في الجزائر (١٩٦٨– ١٩٧٢م) يشارك في معركة التعليم والتعريب .

وظلَّ يعمل ويدأب في الجامعة، لايملُّ ولا يسأم، وتخرجت به أجيال وأجيالٌ من الطلاب، رأوا فيه الأستاذ المثالي القدوة، الذي أعطى بغير حساب. لقد رأى في التدريس تحقيق غاية من أحبّ الغايات إلى نفسه، هي أن يُنشيء جيلاً من العلماء عارفي الفلسفة، يؤدون رسالة الفكر في نزاهة وإخلاص، وينهضون بخدمة أمتهم ومجتمعهم .

٥

ومن هنا نرى ان هاجس الأستاذ الكسم الذي كان لايغادره أمران :

أولهما : السعي إلى نشر المعرفة في مجتمعه وبين قومه. كان ذلك دأبه وديدنه، وكان يجهد ويجاهد ليقدّم خير ماعنده في هذا الباب، حريصاً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كل الحرص أن يقدم الأفكار الصحيحة، وأن يصحّح الأفكار التي شاعت بمفهوم خاطىء .

والثاني : تطلعه الدائم أن يبسط ما أدّاه اليه النظر، وهو يتأمل أحوال قومه، ويلتمس الأسباب التي تدعو إلى نهضة العرب ليشاركوا في الحضارة الانسانية.

هذان القطبان كانا الشغل الشاغل للأستاذ الكسم، دارت عليهما دروسه وتوجيهاته لطلابه طوال حياته الجامعية، وتناولهما في كتاباته ومشاركاته في ندوات كثيرة .

ولقد كان الأستاذ الكسم بارعا موفقاً في إلقاء دروسه، مما يجعلنا على مثل اليقين بأنه استطاع أن يخلف في نفوس طلابه الجامعيين ذخيرة ثمينة تدفعهم إلى التمسك بما دعاهم إليه، والالتزام به.

ولئن لم يتح للأستاذ الكريم أن ينشر جميع آثاره وكتاباته، فمن المستحسن أن نذكر آثار الدكتور بديع المنشورة حتى الآن، وهي :

١ – البرهان في الفلسفة (وهو رسالة الدكتوراه)

قام بترجمة الكتاب إلى العربية الأستاذ جورج صدقني (وزارة الثقافة – دمشق ١٩٩١م) .

وتحدث الأستاذ جورج في مقدمة الكتاب عن الدكتور بديع، وعن خمس عشرة مقالة ومحاضرة له .

٢ – بديع الكسم

قام باعداد الكتاب وتقديمه الأستاذ عزة السيد أحمد (وزارة الثقافة – دمشق ١٩٩٤م) وهو يشتمل على اثنتين وعشرين مقالة من مقالات الدكتور الكسم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٣ – الخلق الفني، تأملات في الفن تأليف بول فاليري، ترجمة بديع الكسم (دار طلاس– دمشق ١٩٩٨م) .

٤ – التطور الخالق تأليف هنرى برغسون، تلخيص بديع الكسم (دار طلاس – دمشق ١٩٩٨م) .

ثم جمعت طائفة من المقالات التي تحدثت عن الدكتور بديع في كتاب :

– قراءات في فكر بديع الكسم (دار الفكر الفلسفي – دمشق ١٩٩٨م).

ويشتمل الكتاب على ثلاث عشرة مقالة لكُتّاب تناولوا الحديث عن الدكتور بديع، وأفكاره، أو تحدثوا عن كتبه، كما يضمّ الكتاب كلمة الدكتور بديع في حفل استقباله في مجمع اللغة العربية.

ويأتي كتاب «البرهان في الفلسفة» أهم عمل من أعمال الدكتور بديع المنشورة، وقد أشاد به فلاسفة العصر. ونكتفي أن نذكر قول أحدهم (بوخنسكي) :

«الآن نستطيع أن نقول: إن العرب قد عادوا بعد غياب طويل، الى الالهام في العمل الفلسفي، وبالتالي الى القيام بدورهم في بناء الحضارة الانسانية».

أما كتاب «بديع الكسم» الذي يشتمل على مقالات ومحاضرات فانه يقدم النموذج الأمثل للطريقة التي انتهجها الأستاذ الكسم في عرض موضوعاته، وقدرته على تجنب التعقيد، ليجعل أفكاره واضحة لقارئه، وهي تعبّر عن الفكر الفلسفي الذي تبناه الدكتور الكسم ودافع عنه، كما أنها تشتمل على ماقام به لنشر المعرفة الحقة، وهي تقدم أيضاً الصورة الصحيحة للقومية العربية، بعد أن نفى عنها كل ما ألصقه بها الجاهلون الذين لايعبؤون بالقيم الانسانية وكرامة الانسان، وبيّن مراميها وخصب محتواها، ونزعاتها الخيرة القائمة على المحبة والمسالمة، ومشاركتها الجادة في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تشييد حضارة انسانية على أسس من التعاون والتكافل بين الأمم .

٦

خير ما أختم به كلمتي أن أتحدث عن الأستاذ الدكتور محمد بديع الكسم العضو في مجمع اللغة العربية .

لقد رأى مجلس المجمع في الأستاذ الدكتور بديع عضواً متميزاً في معارفه الواسعة وآفاقه اللامحدودة، فتمّ ترشيحه وانتخبه المجلس بالاجماع عضواً عاملاً في المجمع للكرسي الذي شغر بوفاة الأستاذ الدكتور عبد الكريم زهور، وصدر بذلك المرسوم ذو الرقم ٤٩٥ في ٢٧/ ١٢/ ١٩٨٨م .

واحتفل المجمع باستقبال الزميل الكريم الأستاذ الدكتور الكسم في جلسة علنية عقدها في قاعة الأستاذ الرئيس محمد كرد علي ببناء المدرسة العادلية (مساء يوم الأربعاء ٢٨/ ٣/ ١٤١١ هـ = ١٧/ ١٠/ ١٩٩٠م) حضرها نخبة طيبة من رجال العلم والثقافة والأدب .

وقد سعدنا باستقباله والترحيب به، وأُسند اليّ إلقاء كلمة المجمع ، كما ألقى الأستاذ الكسم كلمته عن الصديق الأستاذ الدكتور عبد الكريم زهور – رحمه الله– مشفوعة بتحليل عميق لجهود زميله في ميدان العلوم النفسية .

وقد أمضى الأستاذ الكسم عشر سنوات عضواً في المجمع، كانت ملأى بالعمل والعطاء، كان يشارك في جلسات المجلس وفي جلسات لجنة المصطلحات ، ولجنة المجلة. وكان دائب النشاط يلبّي مايطلب منه، ويقدّم المقترحات المفيدة في تحريك العمل وتعجيله وتقويمه .

شارك الأستاذ الكسم في إطار النشاط الثقافي للمجمع بإلقاء محاضرة في مكتبة الأسد (في ٨/ ٥/١٩٩٣م) عنوانها :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لغة الفلسفة

وقد عالج الأستاذ الكسم الموضوع بعمق واستيعاب، كالعهد به دائماً، وعرّج في كلمته على ماقاله العلماء العرب في حديثهم عن الحدود والرسوم الفلسفية كجابر بن حيان والكندي والخوارزمي الكاتب وابن سينا، لينتقل إلى العصر الحاضر، ويحدثنا عما قاله الأستاذ الدكتور جميل صليبا في معجمه الفلسفي.

فأجاد وأطاب في كلمته، وحازت المحاضرة إعجاب المستمعين لدقتها وعمقها وسلاسة لغتها .

وقد أصدرها المجمع مع محاضرتين أخريين في كتيّب بعنوان :

محاضرات المجمع

في الدورة المجمعية ١٩٩٢ – ١٩٩٣

لقد فقدنا بفراق الأستاذ الكسم أخاً عزيزاً، وعضواً نشيطاً، وعالماً جليلا، تغمده الله برحمته، وأسكنه فسيح جنّته .

إن الليالي والأيام لو نطقت أثنت بآلائك الآصالُ والبُكَرُ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net